٩ - قصّة ذى القرنين، وهي آخر القصص فى سورة الكهف، تعطى صورة صادقةً للحاكم المسلم لله ربّ العالمين القويّ الأمين. إنّ ذا القرنين الّذى مكّن الله تعالى له فى الأرض، وآتاه من كلّ شيء، وسخّر له الأسباب، يسخّر هذه النّعم لرفع راية دين الإسلام لله ربّ العالمين، ويضرب المثل الحسن لما يكون عليه الحاكم المسلم. إنّ سكان ما بين الجبلين حينما عرضوا على ذي القرنين المال مقابل أن يبني لهم سداً يمنع يأجوج ومأجوج من الإفساد فى الأرض تعفّف عن أخذ المال ووجد أنّ من مظاهر شكره لله تعالى أن يسخّر نعم الله تعالى عليه فى بناء السّدّ، وفى الوقت ذاته طلب من القوم العمل ومساعدته بسواعدهم وبتقديم الموادّ الأوّليّة الّتى يحتاجها لبناء السّدّ والّتى يستطيعون الحصول عليها. وهكذا ظهر سكّان مابين السّدّين أيدي عاملةً وسواعد بانية، وليس أيدي مستجديةً وأفواهاً آكلة. وهكذا يكون من نعوت الحاكم المسلم لله ربّ العالمين تفجير طاقات الشّعوب وتسخير ما أفاء الله تعالى عليها من خيرات لصالحها. وهكذا تكون الدّولة المسلمة، ومن أجل هذا السّبب - مثلاً - قفزت الحضارة الإسلاميّة فى فجر الإسلام درجات سلّم الحضارة قفزاً، وبلغت أعلى درجات السّلّم خلال ثمانين عاماً فقط. فلنقارن بين الحاكم المسلم والدّولة المسلمة من ناحية وبين الحاكم غير المسلم والدّولة غير المسلمة الّتى تمتصّ دماء الشّعوب الّتى تستعمرها، أعنى تدمّرها.

وهكذا تعالج هذه القصّة من سورة الكهف أحد أمراض هذا العصر المادّيّ، فقد حوّل الّذين فى يدهم مقاليد الحضارة المادّيّة الحياة إلى ما يشبه الغابة الّتى يفترس القويّ فيها الضعيف.

١٠ - إنّ سورة الكهف تقدّم كلّ قصّة من قصصها العلاج النّاجع لداءٍ عضال من أدواء الإنسانيّة الّتى لا يخلو منها كلّ عصر ومصر.

ثانياً:

سورة مريم

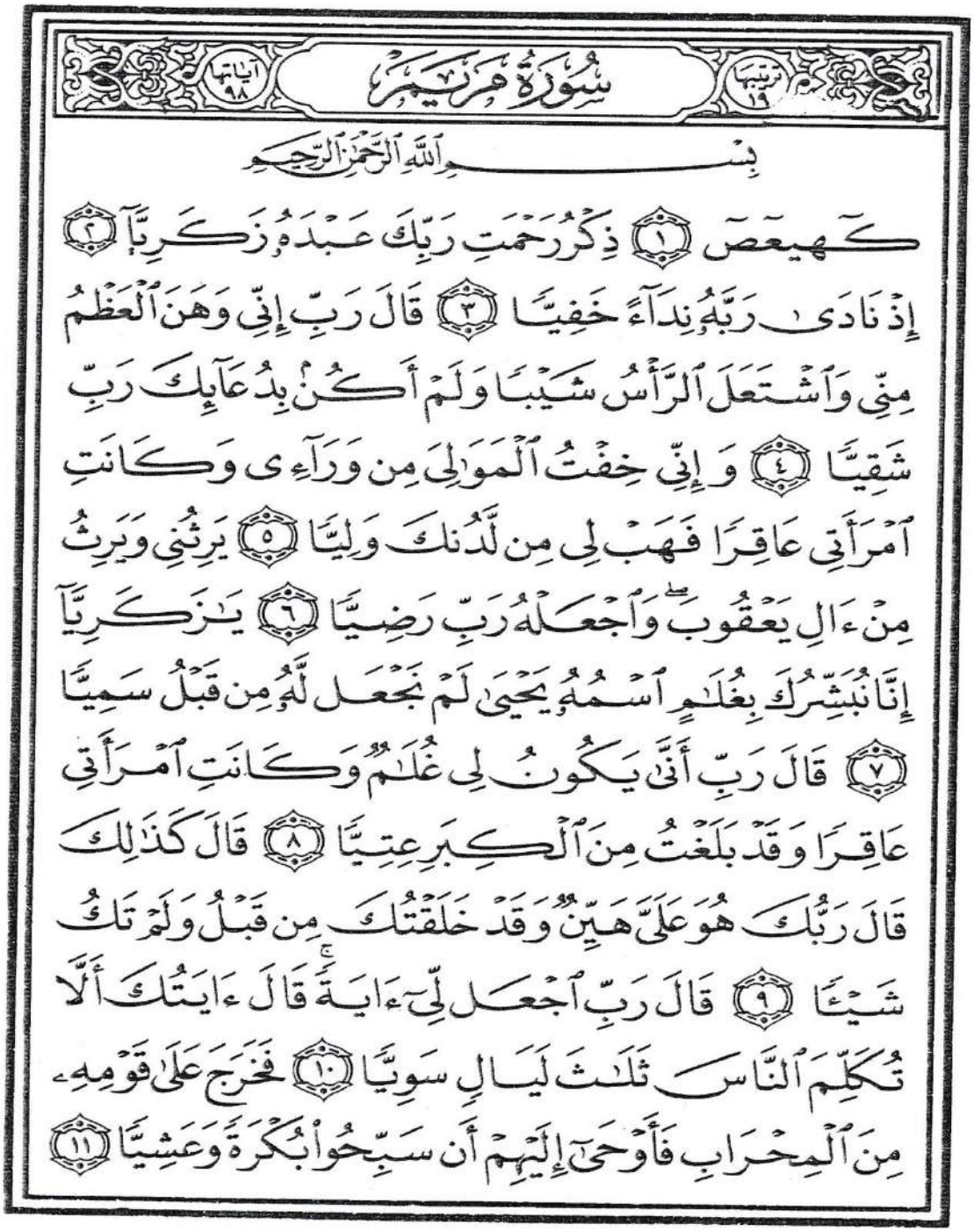

سُورَةُ مَرْيَمَ

ترتيبها ١٩ — آياتها ٩٨

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ
مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ
شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ
ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ
مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾ يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا
﴿٧﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى
عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّىٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾
وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ
يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ
وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ
مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا
فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾ قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٞۖ وَلِنَجۡعَلَهُۥٓ ءَايَةٗ لِّلنَّاسِ وَرَحۡمَةٗ
مِّنَّاۚ وَكَانَ أَمۡرٗا مَّقۡضِيّٗا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتۡهُ فَٱنتَبَذَتۡ
بِهِۦ مَكَانٗا قَصِيّٗا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ إِلَىٰ جِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ
قَالَتۡ يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا ﴿٢٥﴾

فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي
إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾
فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۖ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ
وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن
بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ۖ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾

وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۘ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾ وَٱذْكُرْ
فِى ٱلْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾
وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مُوسَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾

وَنَـٰدَيْنَـٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَـٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن
رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَـٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِسْمَـٰعِيلَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِدْرِيسَ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَـٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ
أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ
وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَا ۚ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ
ءَايَـٰتُ ٱلرَّحْمَـٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ ۞ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ
خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا
﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَأُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ
وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّـٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَـٰنُ عِبَادَهُۥ
بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَـٰمًا ۖ
وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ
عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ۖ لَهُۥ مَا بَيْنَ
أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾

رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ
هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾ وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ
أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ
وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ
لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ
شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ
هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ
حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ
فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ
أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن
كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ
إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا
وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾ وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى ۗ
وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا
﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ
سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ
مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً
لِّيَكُونُوا۟ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ
عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَـٰطِينَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ
تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾
يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَـٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ
إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَـٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ
ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ
جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ
وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا
﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى
ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ
وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجۡعَلُ لَهُمُ
ٱلرَّحۡمَٰنُ وُدّٗا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرۡنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ
ٱلۡمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوۡمٗا لُّدّٗا ﴿٩٧﴾ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم
مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا ﴿٩٨﴾

بين يدي
التّفسير

((١))
((يهب الله تعالى زكريّا عليه السّلام يحيى عليه السّلام من زوجه العاقر))
الآيات (١-١٥)

تبدأ سورة مريم المكيّة الكريمة بالحروف المقطّعة : ﴿كهيعص﴾ وعلى عادة السّور الكريمة الّتى تبدأ بهذه الحروف المقطّعة فى ذكر القرآن الكريم والانتصار له على الفور أو التّراخى يجىء ذكر الكتاب العزيز بصريح اللّفظ فى الآية الكريمة السّادسة عشرة، كما يجىء مضمراً فى الآية الكريمة الثّانية، والتّقدير : هذا القرآن الكريم ذكْرُ رحمة ربّك عبده زكريّا عليه السّلام. وهذه الرّحمة من البرّ الرّحيم سبحانه وتعالى قد تجّلت شديدة الوضوح إذ نادى زكريّا ربّه جلّ وعلا من أعماقه نداءً خفيّ الصّوت ولكنّه لصدقه بمثابة النّداء. قال ياربّ إنىّ قد تمكّن الضّعف من عظمى واشتعل شعر رأسى شيباً ولم أكن وقتاً من الأوقات بدعائك ياربّى شقيّاً غير مستجاب الدّعاء. وإنّى خفت قرابتى من بعد موتى ألاّ يقوموا بشئون الدّين : ﴿وكانت امرأتى عاقراً﴾ لا تحمل فهب لى محض فضلٍ منك وليّاً طيّباً وولداً صالحاً من صلبى يرثني الاهتمام بالدّين، ويرث من آل يعقوب عليه السلام جَدِّى، النّبوّةَ والاهتمامَ بالدّين كذلك. واجعله ياربّى مرضيّاً عنه لديك ولدى عبادك الصّالحين. ويستجيب الله تعالى دعاء زكريّا عليه السّلام وتناديه الملائكة باسمه وتبشّره بغلام اسمه يحيى لم يُسَمَّ بإذن الله تعالى بهذا الاسم أحدٌ قبله. ويريد زكريّا عليه السّلام أن يطمئنّ إلى أنّ الغلام الّذى بُشِّرَ به من صلبه فيسأل عن الكيفيّة الّتى تتحقّق بها البشارة مع أنّ امرأته عاقر وقد بلغ هو من الكبر عِتِيّا. قال المَلَك لزكريّا عليه السّلام : الأمر كذلك ولكنّ ربّك جلّ وَعَلاَ يقول : خَلْقُ الغلام يحيى هّينٌ عليّ وقد خلقتك يا زكريّا من قبل ولم تكن شيئا. لقد جرت العادة بأن يكون إصلاح الموجود أسهل من إيجاده من العدم فى حقّنا نحن البشر العاجزين. إنّ هذا المعنى تومىء إليه الآية الكريمة، علماً بأنّ الأعمال كلّها سواءٌ

فى حقّ الذّات العليّة. ويسأل زكريّا عليه السّلام ربّه جلّ وعلا أن يجعل له آيةً تدلّ على حمل زوجه بالولد. ويكون الجواب بأنّ الآية على الحمل أن ينعقد لسان زكريّا عليه السّلام عن الكلام بخلاف ذكر الله تعالى ثلاثة أيّام بلياليهنّ مع موفور صحّته عليه السلام. وحينما تحقّقت الآية دليلاً على الحمل وانعقد لسانه عليه السّلام وخرج على قومه من المحراب ومكان عبادته أشار إليهم بلطف أن سبّحوا الله تعالى أوّلَ كلّ نهارٍ وآخره وكلّ وقت. ويؤمر يحيى عليه السّلام بأن يأخذ تعاليم التّوراة بجدٍ واجتهاد. وقد آتاه الله تعالى الحكمة صبيّا، وملأ قلبه رحمةً وحناناً، وطهارةً من الذّنوب والمعاصى. وكان يحيى عليه السّلام تقيّاً باراً بوالديه ولم يكن جبّاراً بشأن عباد الله تعالى ولم يكن عصيّاً فى حقّ ربّ العباد جلّ وعلا. وسلامٌ من الله تعالى وأمنٌ وطمأنينةٌ على يحيى عليه السّلام : ﴿يوم وُلِدَ ويوم يموت. ويوم يبعث حيّا﴾.

((٢))
((مريم البتول وابنها عيسى عليه السّلام))
الآيات (١٦-٤٠)

بعد حديث السّورة الكريمة عن زكريّا ويحيى عليهما السّلام، يتمّ الحديث عن مريم البتول الّتى كان يكفلها زكريّا عليه السّلام زوج أختها، وعن عيسى عليه السّلام ابن خالة يحيى عليه السلام. إنّ السّياق يأمر المصطفى ﷺ أن يذكر فى الكتاب العزيز مريم ابنة عمران حين انتبذت من أهلها وقصدت مكاناً شرقيّاً في المنزل كي تخلو لعبادة الله تعالى. فاتّخذت بينها وبينهم حجاباً فأرسل الله تعالى إليها روحه الأمين جبريل عليه السّلام الّذى تمثّل لها بشراً سويّاً وإنساناً كاملاً. قالت إنّى أعوذ بالرّحمن منك وألجأ إليه عزّ وجلّ كي يستيقظ فى نفسك الخوف من الله تعالى، إن كنت تقيّاً فلا تمسّنى بسوء. قال جبريل عليه السّلام إنّما أنا رسول ربّك لأهب لك ولداً طاهراً زكيّاً. قالت البتول متعجّبة : كيف يكون لي ولدٌ ولم يتزوجنى بشر ولم أك بغيّا. قال جبريل الأمر كما قلت لكن قال ربّك

خَلْقُ ولدٍ تلك صفته هيّنٌ عليّ، ولنجعله آيةً للنّاس دالّةً على قدرتنا : ﴿ورحمة منّا﴾ وكان خلق الله تعالى عيسى عليه السّلام من دون أب أمراً مقضيّا، فقد نفخ عليه السّلام فى جيب درع البتول فحملت. وحينما لم يستحي شيءٌ من أوانه اعتزلت البتول بالجنين فى أحشائها قومها وقصدت مكاناً نائياً. فألجأها وجع الولادة إلى جذع النّخلة فى المكان الّذى قصدته بجنينها وقالت من أعماقها : يا ليتنى متّ قبل هذا الحال الّذى أنا فيه وكنت شيئاً تافهاً نسيه النّاس ولم يعودوا يذكرونه. فناداها جبريل عليه السّلام من تحتها أسفل الرّبوة ألاّ تحزنى قد جعل ربّك جلّ وعلا تحتك جدولاً رقراقا. وهزّى إليك بجذع تلك النّخلة تساقط عليك رطباً حان وقت جنيه لذيذاً مفيدا. فكلى يا مريم واشربى وقرّى عيناً وطيبى نفساً. فإن رأيت من البشر أحداً فقولى إنّى نذرت للرّحمن صوماً عن الكلام فلن أكلّم اليوم إنسيّا . فأتت البتول من مكانها القصيّ قومها تحمل عيسى عليه السّلام. قالوا يامريم لقد جئت جرماً خطيرا. يا أخت هارون الرّجل الصّالح ما كان أبوك امرأ سَوْءٍ يأتى المنكر وما كانت أمّك زانية. فأشارت البتول إلى الطّفل أن كلموه. قالوا : كيف نكلّم من كان وما زال فى المهد طفلاً رضيعا. قال عيسى عليه السّلام الطّفل الرّضيع : ﴿إنّى عبد الله﴾ وفى هذا القول توحيدٌ لله تعالى من ناحية، وتبرئةٌ لمريم البتول من ناحيةٍ أخرى. ويتحوّل عليه السّلام بعد ذلك لذكر بعض مظاهر فضل الله تعالى عليه : إنّ عيسى عليه السّلام قد آتاه الله تعالى الإنجيل، وجعله نبيّاً موحىً إليه، وشخصاً مباركاً أينما كان، وأوصاه الله تعالى بالصّلاة عماد العبادات البدنيّة، وبالزّكاة عماد العبادات الماليّة، ما دام عليه الصّلاة والسّلام حيّاً يُرْزق. وجعله الله تعالى باراً بوالدته مريم البتول، ولم يجعله عزّ وجلّ جبّاراً على عباده، شقيّاً بسبب عصيانه الله تعالى وإيذاء عباده عزّ وجلّ. والسّلام من الله تعالى عليه والأمن والطّمأنينة فى المواقف العصيبة الثّلاثة، يوم وُلِد عليه السّلام، ويوم يموت، ويوم يبعث حيّا للحساب والجزاء.

ذلك الّذى بيّن القرآن الكريم صفته عيسى ابن مريم، قول الحقّ جلّ وعلا

وكلمتـه الّتى ألقاها إلى مريم والرّوح منه عـزّ وجلّ الّذى فيه يخـتلف الغالون من النّصارى. ما كان لله عز وجلّ أن يتّخذ من ولد، تنزيها له جلّ وعلا عمّا ألحقه به الظّالمون، إذا قضى أمراً فإنّمـا يقول له كن ذلك الشّخص أو الشّىء فيكون. وممّا قاله عيسى عليه السّلام لقومه : إنّ الله تعالى ربيّ وربّكم فاعبدوه عزّ وجلّ وحده لا شريك له، هذا هو الصّـراط المستقـيم والطّريق القويم. فاخـتلف الأحزاب من النّصارى من بينهم وذوات أنفـسهم، فعذابٌ شديدٌ للّذين كـفروا من أهل الكتاب وسواهم من مشـهد يوم القيامة العظيم. مـا أسمع القوم يوم القيامـة وما أبصرهم بعد فـوات الأوان، لكِنِ الظّالمون فى الحياة الأولى فـى ضلالٍ واضح وخطأ بيّن. وأنذر أيّها الرّسول الكريم والنّبـيّ العظيم يوم الحسرة والنّدامة إذ قُضي يوم القـيامة الأمر بدخول المؤمنين المتّقين الجنّة وخلودهم فيها، وبدخول الكافرين الطّاغين النّار وخلودهم فيها. إنّ الظّالمين فى غـفلةٍ فى الحياة الأولى، وهم لا يؤمنون. وإنّ الله سبـحانه وتعـالى يرث الأرض ومن عليهـا وإليه عزّ وجل يرجع كـلّ الخلائق يوم القيامة.

((٣))
((إبراهيم عليه السّلام))
الآيات (٤١-٥٠)

يأمر السّيـاق المصطفى ﷺ أن يذكر فى الكتاب العزيز لقـومه إبراهيم عليه السّلام، أبا الأنبياء، الّذى كـان صِدّيقاً مبالغاً فى الصّدق، نبـيّاً موحىً إليه، حين قال إبراهيم عليه السّـلام لأبيه آزر يا أَبَتِ لِم تعبد من دون الله تعـالى ما لا يسمع ولا يبصر ولا يفـيدك شيئاً بـدفع ضرٍّ أو جلب نفع. ويستمرّ إبراهـيم عليه السّلام يخـاطب أباه فى رقّةٍ ولطف فـيقـول : يا أبت إنيّ قد جـاءنى أنا الابن من العِلْم اللّدنّيّ مـا لم يأتك أنت الأب، فاتّبـعنى أهدك يا أبى صراطاً سـوياً. ويلاحظ أنّ هذا النّداء اللّطيف فى القول : ﴿يا أبت﴾ يجىء تمام أربع مـرّات. يا أبت لا تعبد الشّيطان الرّحيم. إنّ الشّيطان كان دائمـاً وأبداً شديد العصيان للرّحمن، ولا تكون

طاعة الشّيطان الرّجيم إلاّ بعصيان الرّحمن الرّحيم. يا أبت إنّى أخاف أن يمسّك عذابٌ شديدٌ وأكيدٌ من الرّحمن الرّحيم فتكون للشيّطان الرّجيم وليّاً، ويكون الشّيطان الرّجيم لك قرينا. وبقدر لطف الابن فى الخطاب عنف الأب فى الجواب. قال آزر : أراغبٌ أنت عن آلهتى الكُثْر الّتى أعبدها ومعرضٌ عن عبادتها يا إبراهيم. لئن لم تنته عن الدّعوة إلى التّوحيد والامتناع عن عبادة الأصنام لأرجمنّك بالحجارة رجماً، واهجرني الآن مليّاً، واغرب عن وجهي دهراً طويلا. قال إبراهيم عليه السّلام الابن البارّ لأبيه الفظ المشرك : سلامٌ عليك وأمنٌ وطمأنينة سأستغفر لك ربّي الغفور الرّحيم، إنّه كان دائماً وأبداً حفيّاً بى، براً رءوفاً، محبّاً عطوفا. وأعتزلكم أنت يا أبى وقومك وما تعبدون من دون الله تعالى، وأعبد ربىّ عزّ وجلّ وحده لا شريك له فلن أكون بعبادة ربىّ جلّ وعلا شقيّاً بل سعيداً، ولن تكونوا بعابدة الأصنام سعداء بل أشقياء. فلمّا اعتزل إبراهيم عليه السّلام قومه وما يعبدون من دون الله تعالى وغدا فى الظّاهر وحيداً كان فى الحقيقة كثيراً بالله تعالى الّذى وهب له إسحاق ابنه، ويعقوب حفيده، وجعلهما عزّ وجلّ فى حياة إبراهيم عليه السّلام نبيّين كريمين عليهما السّلام. ووهب الله تعالى لهم جميعاً من رحمته عزّ وجلّ وجعل لهم لسانَ صدقٍ عليّاً فى الآخرين، وذكراً حسناً وثناءً عطراً لدى أهل الملل والنِّحل أجمعين.

((٤))

((موسى وهارون عليهما السّلام))

الآيات (٥١-٥٣)

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يذكر لقومه فى الكتاب العزيز موسى عليه السّلام كليم الله تعالى وأحد أولى العزم الخمسة من الرّسل صلوات الله تعالى عليهم أجمعين. إنّ موسى عليه السّلام كان مصطفيً من الله تعالى ورسولاً نبيّا. وقد ناداه الله تعالى من جانب جبل الطّور الأيمن بالنّسبة لموسى عليه السّلام وقرّبه الله تعالى حينما كلّمه وناجاه. وقد وهب الله تعالى لموسى عليه السّلام من رحمته

عزّ وجلّ أخاه هارون عليه السّلام نبيّا. وكان هارون عليه السّلام أكبر من موسى سنّا وقد شدّ الله تعالى به عَضُدَ موسى عليه السّلام.

((٥))

((إسماعيل عليه السّلام))

الآيتان (٥٤ و ٥٥)

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يذكر فى الكتاب العزيز لقومه إسماعيل عليه السّلام أبا العرب. والمعروف أنّ محمّد بن عبد الله ﷺ النّبيّ الوحيد من ذرّيّة إسماعيل بن إبراهيم عليهما السّلام. إنّ إسماعيل عليه السّلام كان صادق الوعد مع الله تعالى أوّلاً، ومع عباد الله تعالى آخراً، وقد أكرمه الله تعالى بأن جمع له بين درجتي النّبّوة والرّسالة. ومن مظاهر الوفاء بالعهد أنّه كان يأمر أهله بالصّلاة والزّكاة. إنّه عليه الصّلاة والسّلام يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبدأ بالأمر بإقام الصّلاة وإيتاء الزكاة. وكان رضا الله تعالى عنه ثمرة توظيفه نعم الله تعالى عليه فى سبيل ذلك الرّضا وتوفيق الله تعالى له.

((٦))

((إدريس عليه السّلام وبقيّة المنعم عليهم))

الآيات (٥٦-٥٨)

يأمر السّياق المصطفى ﷺ أن يذكر فى الكتاب العزير لقومه إدريس عليه السّلام الّذى كان صدّيقاً نبيّا، والّذى رفعه الله تعالى مكاناً شديد العلوّ. فعلى سبيل المثال، رأى المصطفى ﷺ ليلة الإسراء والمعراج إدريس عليه السّلام فى السّماء الرّابعة. إنّ أولئك المذكورين فى السّورة الكريمة من النّبيين والصّديقين، وغير المذكورين فى السّورة الكريمة هم من ذرّيّة الّذين أنعم الله تعالى بالنّعم الكبرى، وأعلى تلك النّعم نعمتا النّبوّة والرّسالة. إنّهم من ذرّيّة آدم عليه السّلام، ومن ذرّيّة من حَمَلَ الله تعالى مع نوحٍ عليه السّلام فى السّفينة كإبراهيم عليه السّلام. ومن ذرّية إبراهيم عليه السّلام كإسماعيل وإسحاق ويعقوب عليهم

السّلام. ومن ذرّيّة إسرائيل وهو يعقوب عليه السّلام كموسى وهارون وزكريّا ويحيى وعيسى ابن مريم وأمّه مريم البتول عليهم السّلام. ومن ذرّيّة من هدى الله تعالى إلى الصّراط المستقيم وممّن اصطفى الله تعالى بنعمه وعلى رأسها نعمتا النّبوّة والرّسالة. إنّ كلّ أولئك المنعم عليم إذا تُتْلَى عليهم آيات الرّحمن البيّنات يبادرون إلى السّقوط على الوجوه ساجدين لله تعالى عابدين، خاشعين لله تعالى باكين.

((٧))

((كلّ النّاس يعبرون الصّراط الممدود على جهنّم فيدخل المنعم عليهم الجنّة ويهوى المغضوب عليهم فى النّار))

الآيات (٥٩-٧٢)

بعد حديث السّورة الكريمة فى شقّها الأوّل عن المنعم عليهم تتحدّث فى شقّها الآخر عن المنعم عليهم والمغضوب عليهم معاً، وكلّما اقتربنا من نهاية السّورة الكريمة كان حظّ المغضوب عليهم من الحديث هو الأكبر. إنّ السّياق يتحدّث عن الخَلْف السّيّء الّذى خلف من بعد المنعم عليهم. إنّ هذا الخَلْفَ السّيّء أضاع الصّلاة واتّبع الشّهوات فسوف يلقى خسراناً أكيداً، باستثناء من تاب وآمن وعمل صالحاً فأولئك سيدخلون الجنّة بإذن الله تعالى ولا يظلمون شيئا. بل إنّها جنّاتٌ فى حقيقة الأمر، وجنات خلود وعد الرّحمن بها عباده بالغيب وأولياءه وعد الصّدق. وهم لا يسمعون فيها باطل القول لكن السّلام عليهم من الملائكة والقول الطّيّب من أهل الجنّة، ولهم فيها رزقهم فى كلّ الأوقات. وتلك الجنّة هي الّتى يورث الله تعالى الأتقياء من عباده فيدخلونها ويخلدون فيها. وإنّ الملائكة الّتى تسلّم على المؤمنين فى الجنّة وتدخل عليهم من كل باب لا تتنزّل فى الحياة الدّنيا على المصطفى ﷺ، وفيهم جبريل عليه السّلام، إلاّ بأمر الله تعالى. وإنّ المؤمنين المتّقين إنما ينزلون منازلهم فى الجنّة بأمر الله تعالى أيضاً. إنّ لله تعالى مابين أيدى العباد من أمر الآخرة وما خلفهم من أمر الدّنيا وما بينهما بين النّفختين اللّتين تميت

إحداهما الخلائق بإذن الله تعالى وتحيى أخراهما الخلائق. وما كان ربّك أيّها الرّسول الكريم وأيّها الإنسان نسيّا، فلا يعزب عن ربّك مثقال ذرّة فى السّماوات ولا فى الأرض. وهو جلّ وعلا ربّ السّماوات والأرض وما بينهما، فاعبده أيّها الإنسان، واصبر نفسك لعبادته عزّ وجلّ. هل تعلم له سميّاً يستحقّ أن يحمل اسمه وأن يعبد معه؟ والجواب معروف. لا يُعْلم له جلّ وعلا سميّ. ويقول الإنسان الكافر الجنس فى إنكار : أئذا ما متّ لسوف أُبْعَثُ حيّاً من جديد! ويكون الجواب الإنكاريّ من جنس سؤاله الاستفهاميّ : أولا يذكر الإنسان أنّ الله تعالى خلقه من قبل ولم يكن شيئاً. إنّ القادر على الإيجاد ابتداءً قادرٌ على الإيجاد عودة، وهذا المعنى واضح فى حقّ المخلوقين فكيف بالخالق الفعّال لما يريد. وتجاه الإصرار على الكفر وإنكار البعث يكون فى السّياق القَسَمُ بربّ المصطفى ﷺ بأنّه جلّ وعلا سوف يحشر الكافرين وقرناءهم من الشّياطين ثمّ ليحضرنّهم جميعاً حول جهنّم جاثين على الرّكب دليل أشدّ أحوال الكرب. ثمّ سوف ينزع الله تعالى من كلّ شيعةٍ أشدّهم على الرّحمن عتوّاً كي يقدم قومه إلى النّار وبئس القرار. والله سبحانه وتعالى أعلم بالّذين هم الأولى بأن يدخلوا النّار ويخلدوا فيها. وليس من أحدٍ من النّاس إلاّ وهو عابر الصّراط الممدود على جهنّم. كان ذلك على ربّك حتماً وواجباً قضى به عزّ وجلّ. ثمّ ينجيّ الله الّذين اتّقوه جلّ وعلا ويترك الظالمين فى جهنّم جاثين على الرّكب وقد سقطوا من على الصّراط فى النّار والعياذ بالله.

((٨))

((مظاهر من ضلال الكافرين وزيادتهم عمىً وعذابهم، وزيادة المتّقين هدىً وثوابهم))

الآيات (٧٣-٩٨)

ثمّة العديد من مظاهر ضلال الكافرين الّذين يزيدهم الله تعالى عمىً كي يزداد عذابهم، وذلك فى مقابل زيادة المتّقين هدىً كي يزداد ثوابهم. إنّ الكافرين

إذا تُتْلَى عليهم آيات الله تعالى البـيّنات قالوا للّذين آمنوا : أيّ الفريقين منّا ومنكم خيرٌ منزلاً وأحـسن ناديا؟ ونسي أولئك الكافرون المفتونون أنّ الله سبـحانه وتعالى قـد أهلك قبلهم من الأمم الكـافرة أمـثالهم من هم أحـسن أثاثاً ومنظراً، فـعلى الكافرين أن يأخـذوا حذرهم. وإنّ عليك أيّها الرّسول الكريم أن تقـول للكافرين الّذين يحتـقرون المؤمنين لفـقرهم : من كـان فى الضّلالة منّا أو منكم فليـمدد له الرّحمـن فى الضّلالة مـداً. حتّى إذا رأوا ما يـوعدون إمّا العـذاب فى الأولى أو العذاب حين تقـوم السّاعة فسـيعلمون على الحـقيقة أنّهم هم شـرٌّ مكاناً وأضعف جنداً. وسيزيد الله تعـالى الّذين اهتدوا هدى. والأعمال الصّالحات البـاقيات على الحقيقة خيرٌ عند ربّك ثواباً وخيرٌ مآلا. ويضرب السّياق مثلاً لذلك الكافر الموجود فى كلّ الأوقات بذلك المنكر للبعث المستهـزىء به الّذى يقول إنّه يوم القيامة سوف يؤتى مالاً وولداً إن كـان ثمّة بعثٌ وجـزاء. وفى أسلوب الإنكار يسأل السّـياق : أطّلع ذلك المستهزىء بيوم القيامـة على الغيب أم أنّه اتّخذ عند الله تعالى عهداً بأن آمن وعمل صالحاً فـهو ينتظر ثوابه؟ ولمّا كان الأمر ليس كمـا زعم ذلك المستهزىء فإنّ السّيـاق يهدّده بكتابة ما يقـول ومدّه فى طغيانه إلى أن يلقى الله تعـالى كافراً فيترك المال والولد وراءه ويأتى الله تعالى يوم القيامـة فرداً فيحاسبه ويجازيه. وهذا المستهزىء بالـبعث المنكر له يتّخذ هو وأمثاله من الكافـرين آلهة من دون الله تعالى ليكونوا لهم عـزّاً. ولمّا كان الأمر عـلى غير مـا يظنّون فإنّ السّـياق يبـيّن لهؤلاء الضّالّين أنّ الآلهة المزعـومة سوف تكفر بعبادتهم لهـا وتلعنهم وتكون عليهم ضداً وسببـاً لذلّهم وهوانهم. ومن مظاهر زيادة الله تعالى الضّالّين ضـلالاً إلى ضلالهم أنّه جلّ وعلا يرسل الشّيـاطين على الكافرين كي تزعجهم وتهـيجهم على ارتكاب المعاصى. فـلا تعجل عليـهم أيّها الرّسول الكريم وأيّهـا المؤمن فإنّا نعـدّ لهم عداً أعمـالهم وأنفاسهم وأيّامـهم. وفى يوم القيـامة يحشـر الله تعالى المتقين ركـبانا، ويسوق المجرمين إلى جـهنّم عِطاشا، ولا يملكون يومها الشفّـاعة لأنّ الّذى يملكها هو الّذى اتّخذ عند الله تعالى عهداً فـآمن وعمل صالحاً فى الأولى وأذن الله تعالى

له فى الشّفاعة ورضي له قولاً فى الآخرة.

وكما نَعَتِ السّورة الكريمة في صدرها على الّذين قالوا اتّخذ الله ولداً نَعَتْ فى عجزها. وها هي ذى السّورة الكريمة قرب نهايتها تشير إلى الّذين قالوا اتّخذ الله تعالى ولداً كمشركى اليهود والنّصارى والعرب. ويقال لهم : لقد جئتم شيئاً فظيعاً. تكاد السّماوات يتشقّقن منه وينفطرن، وتنشقّ الأرض وتنفطر، وتسقط الجبال وتنهدم. من أجل أن زعموا أنّ للرّحمن ولدا. وما يصحّ للرّحمن ولا يصلح أن يتّخذ ولدا، فإنّ كلّ من فى السّماوات من الملائكة، وفى الأرض من الإنس والجنّ، سوف يأتى الله تعالى يوم القيامة عبداً. لقد أحصاهم عزّ وجلّ وعدّهم عدّا ﴿وكلّهم آتيه يوم القيامة فردا﴾.

وفى مقابل أولئك الكافرين، هنالك المؤمنون الّذين يعملون الصّالحات. إنّ الله سبحانه وتعالى يحبّ هؤلاء وسيجعل لهم فى الأرض وداً بأن يحبّهم عباده عزّ وجل. وأنت أيّها الرّسول الكريم والنّبيّ العظيم قد يسّرنا بلسانك العربّي المبين هذا الكتاب العزيز لتبشّر به المتّقين وتنذر به قومك الشّديدى الخصومة والالتواء والعنت. إنّ على هؤلاء الكافرين أن يعلموا أنّ الله سبحانه وتعالى قد أهلك قبلهم الكثير من السّابقين الظّالمين على شاكلتهم. والدّليل على أنّ هذا هو مصير كفّار مكّة ومن شاكلهم أنّ كلّ الأمم الظّالمة السّابقة قد أبادها الله تعالى عن بكرة أبيها، بدليل أنّه لا حسّ لفردٍ واحدٍ من كلّ تلك الجماعات الّتى أهلكها الله تعالى رلا صوت، لا هَمْسَ ولا جهر.

التّفسير

(١)

« يهب الله تعالى زكريّا عليه السّلام يحيى عليه السّلام من زوجه العاقر »

الآيات (١-١٥)

كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾

تبدأ سورة مريم المكّيّة الكريمة بالحروف المقطّعة. وما سبق أن قيل عن الحروف المقطّعة فى أوّل سورة البقرة يقال هنا. إنّ من العلماء من قال : الله أعلم بذلك. وإنّ من العلماء من اجتهد فى محاولة معرفة هذه الحروف. ومن ألطف الآراء الرّأي الّذى يذهب إلى أنّ هذه الحروف امتدادٌ للتّحدّى بالقرآن الكريم. إنّ كلمات القرآن الكريم تتألّف من الحروف الّتى تتألّف منها كلمات العرب، ولكنّ القرآن الكريم نسيجُ وَحْده.

ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾

هذا القرآن الكريم ذكر رحمة ربّك يا محمّد، عبده زكريّا عليه السّلام. ويلاحظ أنّ لفظ القرآن الكريم مضمرٌ فى الآية الكريمة. والمعروف أنّ كلّ السّور التّسع والعشرين الّتى تبدأ بالحروف المقطّعة يأتى فيها على الفور أو التّراخى الإشارة إلى القرآن الكريم والانتصار له. وإذا كانت لفظة القرآن الكريم أو الكتاب هنا مضمرة، فإنّها جاءت بصريح اللّفظ فى الآية الكريمة السّادسة عشرة فى قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿واذكر فى الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقيّا﴾.

إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا ﴿٣﴾

إنّ رحمة الرّبّ البرّ الرّحيم قد شملت زكريّا عليه السّلام إذ نادى من أعماقه ربّه جلّ وعلا الّذى ربّاه بنعمه وآلائه نداءً خفيّا ودعاه دعاءً مخلصاً.

والّذى يلفت النّظر جمع الآية الكريمة بين النّداء بمعنى الدّعاء الّذى يقترن به صوت، وبين كون هذا النّداء خفيّاً أيّ غير مسموع. وتفسير ذلك أنّ النّداء يتعلّق بحرارة الدّعاء وخروجه من الأعماق، وأنّ الخفاء يتعلّق بالصّوت، فالله سبحانه

وتعالى يسمع كلّ صوت، ويعلم كلّ سرٍّ وعلن، فلا يخفى عليه جلّ وعلا شيءٌ في الأرض ولا في السّماء.

قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾

قال زكريّا عليه السّلام في دعائه ربّه جلّ وعلا الّذي ربّاه بنعمه وآلائه: يا ربّ، إنّي وهن العظم منّي وبلغ أقصى دركات الضّعف بسبب كبر سنّي، واشتعل رأسي شيباً وانتشر في شعر رأسي الشّيب انتشار النّار في الهشيم. وبذلك نكون أمام دليلين على تقدّم زكريّا عليه السّلام في السّنّ، أحدهما داخليٌّ وهو العظم، وآخرهما خارجيٌّ وهو الشّيب. وحينما يكون العظم أقوى الأجزاء الدّاخليّة من الجسم ففي شدّة ضعفه دليلٌ على أنّ ما يقلّ عنه قوّةً أكبر من العظم حظاً في مجال الوهن. ولا يدلّ وهن العظم على ضعف الأجزاء الداخليّة من الجسم وحدها بل يدلّ على الخارجيّة كذلك. وإنّما كان اشتعال الرّأس شيباً هو الدّليل الخارجيّ لأنّه أوّل ما يلفت انتباه النّاظر إلى تقدّم سنّ صاحبه وضعف جسده.

ولمّا كان الدّليلان اللّذان ذكرهما زكريّا عليه السّلام فطريّين ونابعين من عميق إحساسه وصدق شعوره فقد كان المتبادر إلى الذّهن، لو أنّا نتعامل مع شخصيّةٍ عاديّة، أن يسأل مسك الختام ويدعو بحسن الخاتمة مثلاً، ولكنّا نتعامل في الحقيقة مع واحدٍ من المصطَفَيْنَ الأخيار صلوات الله تعالى وسلامه عليهم أجمعين. ولمّا كان ربّ العزّة لم يردّ لزكريّا عليه السّلام دعاءً ولم يخيّب رجاءً فإنّ زكريّا عليه السّلام يشكر لله تعالى هذه النّعمة وذلك في القول على لسانه: ﴿ولم أكن بدعائك ربّ شقيّا﴾ بين يدي ذكر سببٍ آخرَ ذي شقّين تمهيداً لدعاء عريض.

وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِن وَرَآءِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِي وَيَرِثُ
مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾

وإنّـــي خفت الموالى : المـــوالى جمع مولى. والمولى والوليّ فى كـــلام العرب واحد(١).

من ورائى : أي بعد موتي(٢).

وكانت امـرأتى عاقـرا : وكانت زوجـتى لا تلد. يقال منه : رجلٌ عـاقر وامرأةٌ عاقر بلفظ واحد(٣).

واجعله ربِّ رضياً : واجعل ياربّ الوليّ الّذى تهبه لى مرضيّاً ترضاه أنت ويرضاه عبادك ديناً وخُلُقاً وخَلْقا. والرضيّ فعيل صرف من مفعول إليه(٤).

يبيّن زكـريّا عليه السّـلام فى القول على لسانه : ﴿وإنّـى خفت الموالي من ورائى﴾ أهمّ سبب يـدفعه إلى سـؤال الله تعالى أن يهبـه، فضـلاً منه جلّ وعلا ونعمـة، الوليّ الطّيّب والولد الصّالح. وهذا السّـبب هو أنّه عليه السّـلام يخاف على الدّين الموالي من ورائه والأقارب بعد موته أن يضيّعوه. وبالإضافة إلى ضعفه الشّديد الّذى نبّه عليه وهن عظمه واشتـعال رأسه شيبا ممّا هو دليلٌ على أنّ سؤاله الله تعالى الذّريّة من صلبـه كان بباعث الثّقة المطلقـة فى الّذات العليّة هنالك شقٌّ آخر مكملٌ لضعفه مؤكّدٌ تلك الثّقة المطلقة فى الذّات العليّة. أمّا هذا الشّقّ الآخر فهو كون زوجه عقـيما. ويصحّ أن تكون الزّوج عقيماً لكبر سنّها قـياساً على كبر سنّ زكريّا عليه السّلام. ويصحّ أن تكون عقيـماً أصلاً. وربّما وجدنا فى القول : ﴿وكانـت امرأتى عاقـراً﴾ الّدليل على ذلك. إنّ زكـريّا عليه السّـلام يجىء على

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣٧.

(٢) الجـــلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣٧.

(٤) تفسير الطبرى ١٦/ ٣٨.

لسانه لفظ المرأة وليس الزّوجة، ممّا قد يفهم معه أنّ هذه المرأة قد جعلها الله تعالى عقيماً أصلاً. وكلّ هذه المعانى معمّقةٌ إحساس زكريّا عليه السّلام بأنّ دعاءه ربّه جلّ وعلا امتدادٌ لدعائه الدّائم ربّه عزّ وجلّ الّذى أجابه دائماً وأبداً، والّذى لم يردّ له دعاءً ولم يخيّب له رجاء.

ويعيّن زكريّا عليه السّلام الغاية الدّينيّة السّامية من وراء سؤال الولد من الصُّلب وهي أن يرثه الاهتمام بشئون الدّين ويرث النّبوّة من آل يعقوب عليه السّلام الّذى كان زكريّا عليه السّلام من ذرّيّته. وما اهتمّ النّبيّون والمرسلون عليهم جميعاً صلوات الله تعالى وسلامه بغير الدّين. ومن هنا كان سؤال زكريّا ربّه جلّ وعلا بأن يكون الولد من صلبه ممّن يرضى الله تعالى عنه ويرضى عباده جلّ وعلا الصّالحون.

ومن ألطف ما يمكن الإيماء إليه اتّجاه الأدلّة إلى الخارج وإلى الظّهور. وتفسير ذلك أنّ العظم الّذى وهن داخليّ، وأنّ اشتعال الرّأس خارجيّ بالقياس إلى العظم، وأنّ الموالي الّذين خافهم زكريّا عليه السّلام وامرأته العاقر دليلان خارجان عن ذات زكريّا عليه السّلام.

يَٰزَكَرِيَّآ
إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا ﴿٧﴾

لم نجعل له من قبل سميّا : لم نجعل للغلام الّذى نهب لك الّذى اسمه يحيى من قبله أحداً مسمّى باسمه. والسّميّ فعيل صرف من مفعول إليه[1].

ينادَى زكريّا عليه السّلام على لسان الملائكة الأطهار، ويبشَّر بأنّ الله سبحانه وتعالى قد استجاب دعاءه بأن يكون له الولد الصّالح من صلبه.

وحينما يفيد الاسم يحي فى اللّغة العربيّة معنى الحياة ويفيد هذا الاسم فى

(١) تفسير الطبرى ١٦/ ٣٩.

لغة زكـريّا عليه السّلام المعنى ذاته يكون ثمّـة تشابهٌ بين اللّغتين فى هذه الصّـفة. وهذا التّشابه من الأمور العجيبة فى هذه المناسبة.

وهذه الآية الكريمة من سورة آل عـمران تذكر مـجموعة من نعـوت يحيى عليه السّلام. قال عزّ من قائل [1]: ﴿فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب أنّ الله يبشّرك بيحيى مصدّقاً بكلمـةٍ من الله وسيّداً وحَصوراً ونبيّاً من الصّالحين﴾ وكلمة الله عيـسى عليه السّلام. والحَصور الّذى يمتنـع عن النّساء عن قدرة وليس عن عجز.

قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿٨﴾

أنّى يكون : كيف[2] ومِنْ أيّ وجهٍ يكون[3].

وقد بلغت من الكبر عتيّا : يقال للعـود اليابس عودٌ عاتٍ وعاس. وقد عَتَا يعتو عِتيّا وعُتُـوّا وعَسَى يعسو عِسِيّـاً وعُسُوّا. وكلّ متناهٍ إلى غايته فى كبر أو فسادٍ أو كفرٍ فهو عاتٍ وعاس[4].

زكريّا عليه السّلام الواثق فى فضل الله تعالى ووعده يعلم حقيقة زوجه الّتى لا تلد لكبر سنّها وربّما من أجل كـونها عقيماً أساساً، ويعلم حقيـقة ضعفه وهو الّذى بلغ من الكبـر عتيّـاً فـجفّ عوده ويبس، ومـضى ماؤه وانقـضى. إنّه أمام عجزه وعـجز زوجه يسأل عن الكيفيّـة الّتى سوف يتمّ عن طريقها تحقـيق الهبة، ويريد أن يطمئنّ إلى الجـهة الّتى يتمّ بواسطتهـا، بإذن الله تعالى، تحقيق البـشارة بالولد ذى النّعوت العظيمة المتعدّدة.

---

(١) سورة آل عمران ٣٩.

(٢) الجـلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣٩.

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ٣٩ وانظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «عتا» ٣٢١.

قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ
شَيْـًٔا ﴿٩﴾

قال الملك مجيباً لزكريّا عمّا استعجب منه[١] الأمر كذلك[٢] وكما تقول من أنّ امرأتك عاقرٌ وأنّك قد بلغت من الكبر العتيّ، ولكن ربّك يقول : خَلْقُ ما بشّرتك به من الغلام الّذى ذكرت لك أنّ اسمه يحيى عليّ هيّن[٣] ولمّا كان خَلْقُ الله تعالى زكريّا عليه السّلام مِنْ قَبْلُ أعجب من جعل زكريّا عليه السّلام قادراً على الإنجاب فإنّ الآية الكريمة تنصّ على هذه العجيبة الأكبر فى نظرنا، علماً بأنّ الأمور كلّها عند الله تعالى سواء. قال عزّ من قائل : ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا﴾.

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا
تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ
مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾

قال ربّ اجعل لى آية : أي علامة على حمل امرأتى[٤].

ثلاث ليال : أي بأيّامها[٥].

سويّا : وأنت سويٌّ صحيحٌ لا علّة بك من خَرَسٍ ولا مرضٍ يمنعك من الكلام[٦] فاعتقل لسانه ثلاثة أيّام وثلاث ليال[٧].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٢.

(٢) الجلالين.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٠.

(٤) الجلالين.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٠.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤١.

فخرج على قومه من المحراب : فخرج زكريّا على قومه من مصلاّه حين حبس لسانه عن كلام النّاس آيةً من الله له على حقيقة وعده إيّاه ما وعد[1].

فأوحى إليهم : فأشار إليهم إشارةً خفيفةً سريعة[2] وأصل الوحي الإشارة السّريعة[3].

ثقةً من زكريّا عليه السّلام فى بارئه جلّ وعلا وحرصاً منه على الاطمئنان تجاه الوعد بالولد من صلبه هو يسأل ربّه جلّ وعلا علامةً تدلّ على أنّ زوجه العاقر قد حملت. وكان الجواب بأنّ العلامة على ذلك أنّ زكريّا عليه السّلام لا يستطيع أن يكلّم النّاس لغير علّةٍ ولا مرض باستثناء ذكر الله تعالى ثلاث ليالٍ بأيّامهنّ. فخرج زكريّا عليه السّلام على قومه من المحراب ومن مصلاّه وكانوا ينتظرون فتحه ليصلّوا فيه بأمره على العادة[4] فأشار إليهم إشارةً سريعةً خفيفةً بأن يسبّحوا الله تعالى بقول سبحان الله تعالى، فى الصّلاة وفى غير الصّلاة، صباحاً ومساءً، في أوائل النّهار وأواخره وفى كلّ وقت.

وفى هذه المعانى جاء فى سورة آل عمران[5] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب لى من لدنك ذرّيّةً طيّبة. إنّك سميع الدّعاء. فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب أنّ الله يبشّرك بيحي مصدّقاً بكلمةٍ من الله وسيّداً وحصوراً ونبيّاً من الصّالحين. قال ربّ أنىّ يكون لى غلامٌ وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال ربّ اجعل لى آية. قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة أيّامٍ إلا رمزاً واذكر ربّك كثيراً وسبّح بالعشيّ والإبكار﴾.

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤١.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ١١٣.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «وحى» ٥١٥.

(٤) الجلالين.

(٥) الآيات ٣٨-٤١.

يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا ﴿١٢﴾ وَحَنَانٗا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةٗۖ وَكَانَ تَقِيّٗا ﴿١٣﴾ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَيۡهِ وَلَمۡ يَكُن جَبَّارًا عَصِيّٗا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيۡهِ يَوۡمَ وُلِدَ وَيَوۡمَ يَمُوتُ وَيَوۡمَ يُبۡعَثُ حَيّٗا ﴿١٥﴾

يا يحيى خذ الكتاب بقوّة : يا يحيى خذ التّوراة بِجِدّ[1].

وآتيناه الحكم صبيّا : وآتيناه الحكمة[2] أي الفهم والعلم والجدّ والعزم والإقبال على الخير والإكباب عليه والاجتهاد فيه[3] وهو ابن ثلاث سنين[4] فيما يقال.

وحناناً من لدنّا : الضّحّاك : رحمةً من عندنا لا يقدر على أن يعطيها أحدٌ غيرنا[5] أي وآتيناه الحكم وحناناً وزكاة[6] والحنان هو المحبّة فى شفقة وميل[7].

وزكاة : وآتينا يحيى الحكم صبيّاً وزكاةً وهو الطّهارة من الذّنوب واستعمال بدنه فى طاعة ربّه. فالزّكاة عُطِفَ على الحكم من قوله : ﴿وآتيناه الحكم﴾[8].

ينادَى يحيى عليه السّلام ويؤمر بأن يأخذ الكتاب بقوّة، وأن يعمل بتعاليم التّوراة الّتى أوحاها الله تعالى إلى موسى عليه السّلام بجِدّ واجتهاد. وقد آتى الله تعالى يحيى عليه السّلام الحكمة حينما كان بَعْدُ صبيّا، فى الثّالثة من عمره فيما

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٢.

(٢) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حكم» ١٢٧.

(٣) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٣.

(٤) الجلالين.

(٥) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٣.

(٦) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٣.

(٧) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٣.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٤.

يقال، والله أعلم. كما آتاه الله تعالى رحمةً من لدنه جلّ وعلا وحناناً من عنده عزّ وجلّ وحده لا شريك له. وقد تجلّى كلّ ذلك فى رأفته عليه الصّلاة والسّلام بالنّاس وشفقته عليهم. كما آتاه الله تعالى طهارةً فى النّفس، وزكاةً فى الأخلاق، وسمواً فى السّلوك. وكان تقيّاً يراقب الله تعالى فى السّرّ والعلن، ويعبده جلّ وعلا وكأنّه يراه، كما كان برّاً بوالديه الشّيخ الكبير والعجوز الّتى كانت عقيماً، محسناً إليهما. ولم يكن عليه الصّلاة والسّلام وقتاً من الأوقات جبّاراً فى الأرض عصيّاً لله تعالى.

ويلاحظ أنّ الله سبحانه وتعالى أكرمه بثلاثٍ من النّعم، الحكمة والحنان والزّكاة. كما يلاحظ أنّ الله سبحانه وتعالى خصّه بثلاثة نعوت. تقوى الله تعالى، وبرّ الوالدين، ولم يكن جبّاراً عصيّا.

وقد جعل الله تعالى من نصيب يحيى عليه السّلام، السّلام والأمن والطّمأنينة، فى المواقف العصيبة، وهي كذلك ثلاثة، يوم وُلد عليه السّلام، ويوم يموت ويلحق بالرّفيق الأعلى، ويوم يُبْعَث حيّاً فى الدّار الآخرة يوم يقوم الأشهاد.

(٢)

« مريم البتول
وابنها عيسى عليه السّلام »

الآيات (١٦ - ٤٠)

وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ
مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾

إذ انتبذت : حين اعتزلت من أهلها وانفردت عنهم. وهو افتعل من النّبذ. والنّبذ الطّرح[1].

بعد حديث الآيات الكريمات فى القسم السّابق عن زكريّا ويحيى عليهما السّلام، يتحوّل الحديث إلى مريم البتول وابنها عيسى عليه السّلام. وليس بخافٍ وجوهُ الشّبه بين الحالتين فى الموضعين. فبالاضافة إلى كون زكريّا عليه السّلام زوج أخت مريم البتول[2] وكان كافلاً لها بنصّ القرآن الكريم[3] فإنّ ما خصّ الله تعالى به البتول من كراماتٍ بنصّ القرآن الكريم كان باعثاً لزكريّا عليه السّلام أن يسأل ربّه جلّ وعلا الولد من صلبه. وممّا جاء فى هذه المعانى وجَمَعَ فى نَسقٍ بين هؤلاء المصطفَيْنَ الأخيار قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة آل عمران[4] : ﴿ إنّ الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين. ذرّيّةً بعضها من بعض. والله سميعٌ عليم. إذ قالت امرأة عمران ربّ إنّى نذرت لك ما فى بطنى محرّراً فتقبّل منّى إنّك أنت السّميع العليم. فلمّا وَضَعَتْها قالت ربّ إنّى وضعتها أنثى والله أعلم بما وَضَعَتْ وليس الذّكر كالأنثى وإنّى سمّيتها مريم وإنّى أعيذها بك وذرّيّتها من الشّيطان الرّجيم. فتقبّلها ربُّها بقَبولٍ حَسَنٍ وأنبتها نباتاً حَسَناً وكفّلها زكريّا. كلّما دخل عليها زكريّا المحراب وجد عندها رزقاً قال يا مريم أنّى لَكِ هذا قالت هو من عند الله. إنّ الله يرزق من يشاء بغير حساب. هنالك دعا زكريّا ربّه قال ربّ هب

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٤.

(٣) سورة آل عمران ٣٧.

(٤) الآيات ٣٣-٤١.

لى من لدنك ذرّيّةً طيّبـة. إنّك سميع الدّعاء. فنـادته الملائكة وهو قائمٌ يصلّى فى المحراب أنّ الله يبـشّرك بيحيى مـصدّقاً بكلمة من الله وسـيّداً وحصوراً ونبـيّاً من الصّالحين. قال ربّ أنّى يكون لى غلامٌ وقد بلغني الكبر وامرأتى عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء. قال ربّ اجعل لى آية. قال آيتك ألاّ تكلّم النّاس ثلاثة أيّامٍ إلاّ رمزاً واذكر ربّك كثيراً وسبح بالعشيّ والإبكار﴾.

والآية الكريمة من سورة مريم تأمر المصطفى ﷺ أن يذكر فى الكتاب العزيز والقرآن المجيد مريم البتول حين انتبـذت من أهلها مكاناً شرقيّاً واعتزلتهم فى مكان شرقيّ، ربّما فى البيت بقصد الخلوة للعبادة. وربّما كان اختيار المكان ذى الواجهة الشّرقية كي تنتفع من ضوء الفجر وشروق الشّمس فى المبادرة إلى عبادة الله تعالى وبذلك يتسنّى لها بإذن الله تعالى وصل عبادة النّهار بعبادة اللّيل ما أمكن.

فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا
فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ
أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ
رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى
غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ
قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً
مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾

فاتّخذت من دونهم حجاباً : فاتّخذت من دون أهلها ستراً يسترها عنهم وعن النّاس(١).

فأرسلنا إليها روحنا : جبريل عليه السّلام(٢).

فتمثّل لها بشراً سويّا : فتشبّه لها فى صورة آدميّ سويّ الخلق منهم. يعنى فى صورة رجلٍ مِن بنى آدم معتدل الخلق(٣).

لأهب لك غلاماً زكيّاً : طاهراً من الذّنوب(٤).

ولم أك بغيّا : ولم أك زانية(٥).

قال كذلك قال ربّك هو عليّ هيّن : قال لها جبريل : هكذا الأمر كما تصفين من أنّك لم يمسسك بشرٌ ولم تكونى بغيّا، ولكنّ ربّك قال هو عليَّ هيّن. أي خَلْقُ الغلام الّذى قلت أن أهبه لك عليّ هيّن لا يتعذّر عليّ خلقه وهبته لك من

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٦.
(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٦.
(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٦.
(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٧.
(٥) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٧.

غير فحلٍ يفتحلك[1].

إنّ مريم البتول الّتى قصدت مِنْ أهلها مكاناً شرقيّا منعزلاً فى المنزل اتّخذت من دونهم حجاباً جعلته بينها وبينهم كي تخلو إلى نفسها وتتفرّغ للعبادة. فأرسل الله سبحانه وتعالى إليها روحه الأمين جبريل عليه السّلام الّذى ظهر لها فى هيئة بشر كامل الخلقة حسن الهيئة. ولمّا كانت البتول تجد هذا الشّخص فى مكان خلوتها لعبادة الله تعالى فإنّها فزعت منه رغم هيئته الحسنة وخافت منه أن يريد بها سوءاً وخدشاً لعفّتها فلجأت إلى أرحم الرّاحمين وأحكم الحاكمين. قالت البتول في وجلٍ : إنّى أعوذ بالرّحمن منك، وألجأ إلى الله تعالى الّذى وسعت رحمته السّماوات والأرض وكلَّ شيءٍ وكلّ حيٍّ، وأنت واحدٌ من هؤلاء الأحياء، إن كنت تقيّاً تمتلىء نفسك بين جنبيك بالخوف من الله تعالى سوف تنصرف عنّى وتبتعد من مكانى ولا تمسّنى بسوء.

قال جبريل عليه السّلام يجيب البتول : إنّما أنا رسول ربّك جلّ وعلا الّذى أنعم عليك بكلّ النّعم وينعم عليك بإرسالى إليك لأهب لك، فضلاً منه تعالى ونعمة، غلاماً زكيّا، وولداً طاهراً.

ومع أنّ لفظة : ﴿زكيّا﴾ تفهم البتول منها أنّ هذا الغلام لا يمكن أن يكون إلاّ بواسطةٍ طاهرة فإنّها، وهى غير المتأكدة من حقيقة هذا الشّخص الّذى تجده فى مكان خلوتها للعبادة، تسأل فى تعجّبٍ عن الكيفيّة الّتى يجىء بها الغلام.والوجه الذى يتمّ به وجوده، فتنفى عنها الحالين الّتى يتمّ بهما الإنجاب فى العادة. إنّها غير متزوّجة، وهذه هي الحال المشروعة، وهي عفيفةٌ غير بغيّ، وهذه هي الحال غير المشروعة. ولا ثالث لهاتين الحالين منذ أمّها حوّاء عليها السّلام.

قال جبريل عليه السّلام : الأمر كما تصفين فأنت غير ذات زوجٍ، وامرأةٌ طاهرةٌ عفيفةٌ، ولكن قال ربّك جلّ وعلا : خَلْقُ الغلام الّذى سوف أهبه لك، هيّنٌ عليه جلّ وعلا وليس شيئاً ذا بال، ولنجعل هذا الغلام آيةً للنّاس دالّةً على

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٧.

القدرة المطلقة للذّات العليّة، ورحمةً منّا بهم. وكان خلق عيسى عليه السّلام من أمٍّ دون أبٍ أمراً من الله تعالى مقضيّاً لا محالة. وتمّ ذلك بأن نفخ جبريل عليه السّلام فى جيب درع البتول والموضع من القميص الّذى تدخل رأسها فيه حينما تريد أن تلبسه.

وإنّ خلق الله تعالى عيسى عليه السّلام من أنثى ولا ذكر إحدى الحالات الأربع الّتى تجلّى فيها خلق الله تعالى للإنسان. أمّا الحالات الثّلاث الأخر فإنها خلق آدم عليه السّلام من طينٍ لازبٍ فليس ثمّة ذكرٌ ولا أنثى، وخلق حوّاء عليها السّلام من ضلع آدم عليه السّلام فثمّة ذكرٌ ولا أنثى، وخلق الله تعالى سائر الخلق من ذكرٍ وأنثى.

فَحَمَلَتْهُ فَانتَبَذَتْ
بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ
قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾
فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾
وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾
فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا ۖ فَإِمَّا تَرَيِٰنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ
إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّاً : فاعتزلت بالّذى حملته وهو عيسى وتنحّت به عن النّاس مكاناً نائياً قاصيا(١).

فأجاءها المخاض : فجاء بها المخاض(٢) وألجأها(٣).

المخاض : الطَّلْق(٤) ووجع الولادة(٥).

وكنت نسياً : كل شيءٍ نُسِي وتُرِك ولم يُطْلَبْ فهو نَسْيٌ ونِسْي بفتح النّون وكسرها. هما لغتان معروفتان من لغات العرب بمعنى واحد(٦).

فناداها : جبريل عليه السّلام(٧).

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٨.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٨.

(٣) تفسير الطّبرى ١٦/ ٤٩.

(٤) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٦.

(٥) الجلالين.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٠.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥١.

من تحتها : من أسفل الوادى[1].

سريّاً : نهراً يسرى[2] وكان قد انقطع[3] أو نهراً صغيراً يعنى الجدول[4] والسّريّ معروفٌ من كلام العرب أنه النّهر الصّغير[5].

جنيّا : مجنيّا[6] والمجنيّ المأخوذ طريّا. وكلّ ما أُخِذ من ثمرةٍ أو نقل من موضعه بطراوته فقد اجتُنِى[7].

وقرّى عيناً : وطيبى نفساً[8].

فإمّا ترينّ من البشر أحداً : فإن رأيتِ من بنى آدم أحداً يكلّمك أو يسائلك عن شيءٍ من أمرك وأمر ولدك وسبب ولادتكه[9] إن : حرف شرطٍ جازم. ما : زائدة. ترينّ : مضارع مجزوم وعلامة الجزم حذف النّون، لأنّه من الأفعال الخمسة. والياء : ضميرٌ متّصلٌ فى محلّ رفعٍ فاعل. والنّون : نون التّوكيد[10].

صوما : صمتا[11] وقيل صوماً عن الطّعام والشّراب وكلام النّاس[12].

حملت مريم البتول بعيسى عليه السّلام بعد أن نفخ جبريل عليه السّلام فى جيب درعها. وحينما ظهرت عليها طلائع الحمل ولم يستحي شيءٌ من أوانه

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٧.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «سرى» ٢٣١.

(٣) الجلالين.

(٤) انظر تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٣.

(٥) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٤.

(٦) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٦.

(٧) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٦.

(٨) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٦.

(٩) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٦.

(١٠) الجدول فى إعراب القرآن وصرفه ٨/ ٢٣٧.

(١١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٦.

(١٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٧.

اعتزلت بالطّفل الّذى تحمله فى أحشائها وقصدت مكاناً نائياً استعداداً لما تئول إليه الأمور. وحينما دنا وقت الوضع ألجأها ألم الطّلق ووجع الولادة إلى جذع النّخلة المألوفة للبتول وقالت من أعماقها : ياليتنى متّ قبل هذا الوضع الّذى أنا فيه وكنت أهون شيءٍ يطرحه النّاس عمداً لتفاهته وهوانه ولا يذكرونه مطلقاً بل ينسونه إلى الأبد.

فى تلك اللّحظة الحرجة الّتى تمرّ بها البتول والّتى هي فيها أفقر الخلق لرحمة البرّ الرّحيم يناديها جبريل عليه السّلام من تحت الرّبوة الّتى هي فوقها ويقول لها : لا تحزنى قد جعل ربّك تحتك نهراً صغيراً جارياً.

ونستطيع أن نفهم من جملة : ﴿فناداها﴾ البعد الضّروريّ بين البتول فى أثناء عملية الطّلق والوضع وبين جبريل عليه السّلام أسفل الرّبوة. وقد جاءت الإشارة إلى الرّبوة الّتى آوى الله تعالى إليها عيسى عليه السّلام وأمّه البتول فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة المؤمنون[1] : ﴿وجعلنا ابن مريم وأمّه آيةً وآويناهما إلى ربوةٍ ذات قرارٍ ومعين﴾ والقرار : المستَقَرّ[2] والمعين : الماء الجارى[3].

ويلاحظ أنّ جبريل عليه السّلام ينهى البتول عن الحزن. والحزن تفاعلٌ إيجابيٌّ مع أحداثٍ مستجدّة. وحينما يُرْدَف النّهي عن الحزن بأنّ الرّبّ البرّ الرّحيم قد جعل جدولاً يجرى تحت البتول يصحّ أن نفهم أنّ ممّا عمّق حزن البتول أنّها فى تلك الحال الّتى هي فيها لا تجد الماء الشّديدة الحاجة إليه لأغراضٍ شتّى فى مقدّمتها النّظافة والشّرب. ونستطيع أنْ نفهم من جملة : ﴿جَعَل﴾ الّتى تفيد التّصيير والتّحويل أنّ الله سبحانه وتعالى قد أجرى آنذاك الجدول الّذي لم يكن جارياً.

ولمّا كانت حاجة البتول للطّعام قائمةً حاجتها للماء فإنّ جبريل عليه السّلام يرشد البتول إلى الطّعام القريب منها قرب الماء بل هو أقرب. وهذا الطّعام ليس

(١) الآية ٥٠.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « قر » ٣٩٨.

(٣) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « معن» ٤٧٠.

أيّ طعامٍ ولكنّه الطّعام المفيد للنّفساء والطّعام الّذى تستطيع البتول الحصول عليه بأقلّ جهد. إنّه الرُّطَب الّذى حان وقت جنيه. وليس على البتول الّتى كانت تحت النّخلة سوى أن تهزّ إليها بجذع النّخلة كي تُسْقِط عليها النخلة ما تحتاج إليه البتول من الرّطب النّاضج المفيد اللّذيذ.

ويأمر السّياق البتول أمر إباحة بأن تأكل ما شاءت من ذلك الرّطب وتشرب ما شاءت من ذلك الماء وأن تَقَرّ عيناً، وتطيب نفساً، وتنشرح صدراً. فإن هي رأت من البشر أحداً وطرح أيَّ سؤالٍ : ﴿فقولى إنّى نذرت للرّحمن صوماً﴾ وأوجبت على نفسى لله تعالى صمتاً وسكوتاً فلن أكلّم اليوم أيّ إنسان.

ويلاحظ أنّ الإمساك عن الكلام هو الصّيام أو هو من متعلّقاته.

ويلاحظ كذلك أنّ التّعبير عن الأمر بأن تطيب البتول نفساً يجىء فى القول : ﴿وقرّى عينا﴾ من القّر بضمّ القاف بمعنى البرد[1]. وإنّ القرآن الكريم الّذي نزل بلسانٍ عربيّ مبين يسير فى القول : ﴿وقرّى عيناً﴾ يسير وفق طرائق العرب فى تعبيرها. فلمّا كانت عين العربىّ فى جزيرة العرب تتأذّى من الحرّ وترتاح للبرد أو القُرّ جاء على لسانهم مثل هذا القول : «قرّة العين» وإنّ ارتياح العين بسبب البرد أو القُرّ ينسحب إلى النّفس والصّدر والفؤاد. ولهذا كان القول : قرّة العين، بمعنى طيب النّفس وانشراح الصّدر وبرد الفؤاد. وقد أفاد القول فى الآية الكريمة. ﴿وقرّى عيناً﴾ كلّ تلك المعانى الّتى يريدها العربيّ من القول : «قرّة العين».

(١) مفردات الرّاغب الأصفهانى : « قرّ » ٣٩٧.

فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا
فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ
أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى
ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى
نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَىٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ
وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى
جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ
وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾

فريّا : عظيما[1].

يا أخت هارون : روى مسلمٌ والتّرمذيّ والنّسائيّ عن المغيرة بن شعبة قال : بعثني رسول الله ﷺ إلى نجران فقالوا : أرأيت ما تقرأون : ﴿يا أخت هارون﴾ وموسى قبل عيسى بكذا وكذا؟ قال : فرجعت فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ فقال : ألا أخبرتهم أنّهم كانوا يسمّون بالأنبياء والصّالحين قبلهم[2] وبناءً على ذكر الأب والأمّ في الآية الكريمة يكون المسمّى بهارون في الآية الكريمة ـ والله أعلم ـ أخا مريم على الحقيقة أو على جهة الصّلاح. وقد تكون البتول من نسل هارون أخي موسى عليهما السّلام كما يقال للتميميّ يا أخا تميم، وللمضريّ يا أخا مضر[3].

---

(١) تفسير الطّبري ١٦/ ٥٨ ومفردات الرّاغب الأصفهاني : « فرى » ٣٧٩.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/ ١١٩.

(٣) انظر تفسير الطّبري ١٦/ ٥٩ وتفسير ابن كثير ٣/ ١١٨.

بَغيّا : زانية[1].

فأشارت إليه : فأشارت لهم إلى عيسى أن كلّموه[2].

آتاني الكتاب : أي الإنجيل[3].

جاء فى سورة آل عمران[4] قول الحقّ جلّ وعلا : ﴿إذ قالت الملائكة يا مريم إنّ الله يبشّرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابنُ مريم وجيهاً فى الدّنيا والآخرة ومن المقرّبين. ويكلّم النّاس فى المهد وكهلاً ومن الصّالحين﴾ إنّ الملائكة الكرام تخبر البتول وتبشّرها بأنّ ابنها عيسى ابن مريم يكلّم النّاس فى المهد بإذن الله تعالى. وبناءً على ذلك هي حينما تصوم عن الكلام وتشير إلى الطّفل أن كلّموه إنّما تستند إلى تلك البشارة السّابقة.

إنّ البتول تأتى قومها بعيسى عليه السّلام تحمله. وإنّ قوم مريم يتمزّقون نفسيّاً بين ماضيها المجيد فى العبادة والطّهر والفضيلة، ويومىء إلى إكبار القوم هذه النّعوت فى البتول القول على لسان القوم فى هذا الظّرف العصيب : ﴿ يا مريم ﴾ وبين حاضرها الأليم وواقعها الأثيم، ويومىء إلى استفظاع القوم ما قامت به البتول القول على لسانهم خطاباً للبتول : ﴿لقد جئت شيئاً فريّا﴾ والمعنى لقد جئت شيئاً عظيماً وارتكبت ذنباً شنيعا.

وإنّا نودّ أن نقف مليّاً عند جملتي «أتى» «وجاء» وقد اجتمعتا فى الآية الكريمة لكن فى سياقين مختلفين إلى حدٍّ مّا، على حين اجتمعت الجملتان فى سياقٍ واحد أو مناسبةٍ واحدة، وذلك فى قول الحقّ جلّ وعلا فى سورة مريم[5] الكريمة ذاتها على لسان ابراهيم عليه السّلام : ﴿يا أبت إنّى قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتّبعنى أهدك صراطاً سويّا﴾ وقد تبيّن من دراسة استعمالات القرآن

---

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٩.

(٢) تفسير الطّبرى ١٦/ ٥٩.

(٣) الجلالين.

(٤) الآية ٤٥و٤٦.

(٥) الآية ٤٣.

الكريم الجملتين أنّ جملة : «جاء» لا تُستَعْمَلُ فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على القرب الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ. وأن جملة : «أتى» لا تُستَعْمَلُ فى القرآن الكريم إلاّ دليلاً على البعد الزّمانيّ أو المكانيّ أو المعنويّ النّفسيّ. وبشأن الآية الكريمة على لسان إبراهيم عليه السّلام يكون معناها فى ضوء هذه النّظريّة : يا أبت آزر إنيّ قد جاءنى أنا الصّغير السّنّ من العلم اللّدنّيّ مالم يأتك أنت الكبير السّنّ فاتّبعنى ولا تستنكف عن عبادة الله تعالى وتستكبر أهدك صراطاً سويّا وطريقاً مستقيما. وهكذا اقترنت جملة : «جاء» بالقرب الزمانيّ المتعلّق بالابن، واقترنت جملة : «أتى» بالبعد الزّمانيّ المتعلّق بالأب.

فلنعد إلى الآية الكريمة المتعلّقة بالبتول والّتى تبيّن التّمزّق النّفسيّ الّذى فيه قوم البتول. واللّطيف فى الأمر أنّ كلاً من الجملتين ارتبطت بأحد شقّي المعنى فى الآية الكريمة، ما أتت به البتول وما جاءته.

إنّ القول : ﴿فأتت به قومها تحمله﴾ تفيد فيه جملة : ﴿فأتت﴾ أنّ البتول أتت قومها تحمل المسيح عليه السّلام وقدمت من مكانٍ بعيدٍ أو قصيّ، جاءت الإشارة إليه من قبل فى القول : ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصيّا﴾.

وإنّ القول : ﴿لقد جئت شيئاً فريّا﴾ تفيد فيه جملة : ﴿جئت﴾ أنّ البتول فى ظنّ قومها قد جاءت ومارست فِعلاً ذلك الشّىء الفريّ والحدث العظيم والخطأ الجسيم.

ولمّا كانت أسرة البتول طاهرةً عفيفةً وكانت البتول فى ظنّ قومها قد انشقّت على تلك الأرُومة الطّيّبة وخرجت على ذلك الأصل الزّكيّ فإنّ القوم يجىء على لسانهم ذكر عددٍ من كبار تلك الأسرة فضلاً وعفّة. إنّهم يجىء على لسانهم القول خطاباً للبتول : ﴿يا أخت هارون﴾ ونميل إلى الظّنّ بأنّ المراد أخوها على الحقيقة. ها هو ذا أخوك الّذى يقاربك فى السّنّ، أنت تتّصفين بغير صفاته بل بعكس صفاته. ومن الطّبيعيّ بعد ذكر الأخ وهو فرع، أن يتم التّحوّل إلى الأصل، أعنى الوالدين اللّذين لم يتّصف واحدٌ منهما بالصّفة الّتى يظنّ القوم أنّ البتول اتّصفت

بها. إنّ أباها ما كان امرأ سَوْء وإنّ أمها ما كانت زانية.

وإنّ البتول الّتى أُمرت بالصّيام أي بالصّمت تشير لهم إلى عيسى عليه السّلام كي يكلّموه، فقد بشّرتها الملائكة بأنّه سيكلّم النّاس فى المهد. ويظنّ القوم أنّ البتول تستهزىء بهم، إن كانت بكامل قواها العقليّة، ويسألون فى إنكار: ﴿كيف نكلّم من كان فى المهد صبيّا﴾ إنّ العادة ما جرت من قبل بأن تكلّم طفلٌ حديث العهد بالولادة لا يزال فى المهد وفى حِجْر والدته.

ويُنْطِق الله تعالى القادر على كلّ شىءٍ والفعّال لما يريد عيسى ابن مريم الطّفل فى المهد، وفى مجرّد كلام الطّفل براءةٌ لوالدته مريم البتول. وأوّل كلام عيسى عليه السّلام يتعلّق بتوحيد الله تعالى: ﴿قال إنىّ عبد الله﴾ إنّ عيسى عليه السّلام، وهو أحد أولى العزم من الرّسل الخمسة، عبد الله تعالى الواحد الأحد الفرد الصّمد الّذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد، وليس أيّ شىءٍ آخر. إنّه ليس إلهاً، وليس ابن إله، وليس ثالث ثلاثة: ﴿كبرت كلمةً تخرج من أفواههم إن يقولون إلاّ كذبا﴾[1].

وبعد أن أعلن عيسى عليه السّلام فى المهد أنّه عبد الله تعالى، ذكر مجموعةً من مظاهر فضل الله تعالى عليه. إنّ الله سبحانه وتعالى آتاه الإنجيل، وجعله نبيّا، وجعله مباركاً أينما كان، وأوصاه عزّ وجلّ بإقام الصّلاة وإيتاء الزّكاة مادام عليه السّلام حيّاً، وجعله بارّا بوالدته ولم يجعله عزّ وجلّ جبّاراً على عباد الله تعالى متسلّطاً، شقيّاً بسبب معصية الله تعالى والفسق عن أمره عزّ وجلّ. ويلاحظ أنّ نفي الشّقاوة هنا يجىء فى الموضع الّذى نُفي فيه العصيان عن يحيى عليه السّلام من قبل. كما يلاحظ أنّ السّلام الّذى جاء منكّراً فى حقّ يحيى عليه السّلام جاء معرَّفاً فى حقّ عيسى عليه السّلام. قال عزّ من قائل: ﴿والسّلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيّا﴾ إنّ السّلام والأمن والطّمأنينة من نصيب عيسى عليه السّلام كما كان من نصيب يحيى عليه السّلام ولهذا جاء معرَّفاً هنا ومنكّراً هناك.

---

(١) سورة الكهف ٥.

إنّ السّلام من نصيبهما عليهما الصّلاة والسّلام فى هذه المواقف العصيبة الثّلاثة، يوم الولادة، ويوم الموت، ويوم البعث.

ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ الْحَقِّ
الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَانَهُ ۚ
إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِن
بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ
وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾
وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ
﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَن عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

ذلك الّذى بيّن القرآن الكريم حقيقته وصفته عيسى ابن مريم البتول. أعنى قول الحقّ جلّ وعلا وكلمة الصّدق الّذى فيه يمترون ويختلفون. إنّ من أتباع عيسى عليه السّلام من يزعم أنه هو الله، أو ابن الله، أو ثالث ثلاثة: «هو إله وأمّه إله والله إله»[1] مع أنّه عليه السّلام كلمة الله تعالى. ما كان لله تعالى وما ينبغى له عزّ وجلّ أن يتّخذ من ولد سبحانه عزّ وجلّ وتنزيهاً له جلّ وعلا عن كلّ ما ألحقه به الظّالمون وتعالى علوّاً كبيراً. إذا قضى عزّ وجلّ أمراً فإنّما يقول له كن فيكون. وإنّ الّذى دعا إليه عيسى عليه السّلام هو توحيد الله تعالى، وإنّ الّذى قاله عليه السّلام لقومه: إنّ الله تعالى ربى وربّكم فاعبدوه جلّ وعلا وحده لا شريك له.

(١) تفسير الطّبرى ١٦/ ٦٥.

إنّ هذا الطّريق هو وحده الصّراط المستقيم المفضى إلى جنّات النّعيم. فاختلف الأحزاب من النّصارى من ذوات أنفسهم وفيما بينهم على نحو ما تبيّن من قبل. فويلٌ للّذين كفروا من هؤلاء الغالين فى عيسى عليه السّلام من مشهد يومٍ عظيمٍ يقوم فيه النّاس لربّ العالمين للحساب والجزاء.

ما أشدّ سمع الظّالمين يوم القيامة وما أقوى بصرهم يوم يأتون الله تعالى فرادى حفاةً عراة. لكِن الظّالمون فى هذه الحياة الأولى فى ضلالٍ مبين وشططٍ ظاهر، فلا تسمع آذانهم صوت دعوة الحقّ سماعاً واعياً، ولا ترى أبصارهم نور هداية القرآن الكريم للطّريقة الّتى هي أقوم والخصلة الّتى هي أسلم.

وبسبب تشابه الظّالمين خلال العصور فى الصّفات، يؤمر المصطفى ﷺ بأن ينذر المشركين ويخوّفهم يوم الحسرة، وهو يوم القيامة الّذى تتحسّر فيه كلّ نفسٍ ظالمة على ما فرّطت فى جنب الله تعالى، وقصّرت فى حقّه جلّ وعلا، وذلك حينَ يُقْضَى الأمر ويصدر الحكم بخلود الكافرين فى النّار وخلود المؤمنين فى الجنّة. والعجيب فى الأمر أنّ القوم فى هذه الحياة الأولى فى غفلةٍ رغم تنبيههم وإيقاظهم. وهم لا يؤمنون رغم دعوتهم إلى الإيمان وتحذيرهم من الكفر. وتقرّر آخر آيات القِسْم أنّ الله سبحانه وتعالى هو الّذى يرث الأرض ومن عليها، فلا مُلْكَ يوم القيامة إلاّ لله تعالى الواحد القهار، الّذى يرجع إليه الخلائق من أجل الحساب فالجزاء، الثّواب أو العقاب.

(٣)

« إبراهيم عليه السّلام »

الآيات (٤١ - ٥٠)

وَاذْكُرْ

فِي الْكِتَٰبِ إِبْرَٰهِيمَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَٰٓأَبَتِ
إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا
سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ الشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ
فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى
يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ۖ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ۖ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ
سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾
وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ
أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾
وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

إنّه كان صدّيقاً : مبالغاً فى الصّدق[1] فصدق بقوله واعتقاده وحقّق صدْقَه بفعله[2].

إنّه كان بى حفيّاً : الحفيّ البرّ اللّطيف العالم بالشّىء[3] يجيب دعائى إذا دعوته. يقال منه تحفّى بي فلان[4] إذا عُنِى بإكرامى[5].

(١) الجلالين.

(٢) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «صدق» ٢٧٧.

(٣) انظر مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حفى».

(٤) تفسير الطّبرى ١٦/ ٧٠.

(٥) مفردات الرّاغب الأصفهانى : «حفى». ١٢٥.